من الأدب الأندلسي

التوابع والزوابع[1]

بقلم محمد فهمي عبد اللطيف

— ١ —

نشأ أبو عامر بن شهيد الأشجعي في الأندلس في قرطبة إحدى مدن العلم والأدب، وكان هذا الرجل أديباً مغموراً توغل في شعاب البلاغة وطرقها كما يقول ابن خاقان[2]، وله في الأدب مجالس معمورة يبث فيها تعاليمه وآراءه، ويا لها من تعاليم قيمة، وآراء مبتكرة، ولكنه كان مبتلى بحقد جماعة من معاصريه قصروا عن شأوه فناصبوه الخصومة، فكان وهم كما يقول.

وبلّغت أقواما تجيش صدورهم ... عليّ وأني منهم فارغ الصدر

أصاخوا الى قولي فأسمعت معجزاً

وغاصوا على سري فأعياهم أمري

ولكنه لم يلبث أن ضاق صدره بهم، وشغله أمرهم، فأصلاهم ناراً حامية من التهكم المر والتعريض اللاذع؛ وتفنن في الانتقاص من قدرهم، والحط من شأنهم، وتحداهم بآرائه في النقد والبيان، وازدهى عليهم بقدرته في الشعر والنثر، وساق ذلك كله في قصة خيالية زعم أنها وقعت له في وادي الجن، وأن حوادثها جرت بينه وبين شياطين الشعراء والأدباء — هذه القصة هي « التوابع والزوابع » موضوع بحثنا اليوم — وهي رسالة أدبية ممتعة تعد من خير ما خلف في تراثنا الأدبي قوة وجدة وطرافة.

ولما كان في التوابع والزوابع شبه من رسالة الغفران، وكان عصر ابن شهيد مندرجاً في عصر المعري، رجح لدى الأدباء أن يكون أحد الرجلين ضرب على غرار الآخر، وانساق مع تيازه، فاهتموا ببحث الصلة بين الرسالتين، وتلمسوا فضل الأسبقية للسابق من الرجلين، وكان من رأي الدكتور أحمد ضيف أن ابن شهيد هو الذي احتذى شيخ المعرة وحاكاه، واحتج لذلك بأن شهرة أبي العلاء كانت ذائعة في الخافقين، وقد كان أهل الأندلس مولعين بتقليد المشارقة في آدابهم وأفكارهم بل وفي كل شيء؛ ولكن الدكتور زكي مبارك أمعن في البحث والتدقيق، ونظر الى المسألة من جانبين: الجانب الأول التاريخ الذي وضعت فيه التوابع والزوابع وقد استخلصه بالتقريب من قول صاحبها يخاطب جنية « من إخواننا من بلغ الامارة، وانتهى الى الوزارة ». قال: وفي هذا اشارة الى أنه وضعها وهو كهل، أي بعد سنة اربعمائة واثنتي عشرة للهجرة[1]، وأما الجانب الآخر. فهو التاريخ الذي كتبت فيه رسالة الغفران، وقد قال في تحقيقه: إن هذه الرسالة كانت جواباً على رسالة ابن القارح، فاذا علمنا بأن هذا الرجل وضع رسالته بعد أن نيّف على السبعين كما وقع في ثنايا كلامه، واذا علمنا بأنه ولد سنة احدى وخمسين وثلثمائة، ثبت لدينا أن رسالة الغفران كتبت حوالي سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، أي بعد التوابع والزوابع بنحو عشر سنين، وعلى هذا صار من المرجح أن يكون أبو العلاء هو الذي قلّد ابن شهيد..!!

فالدكتور زكي مبارك قد أنصف ابن شهيد حقاً، واستطاع أن يثبت له فضل السبق على صاحبه، ولكنه لم يستطع أن يثبت تهمة التقليد التي رجحها على المعري، وهي تهمة كبيرة لو صحت لكان لها شأن كبير في الأدب، خصوصاً إذا طاوعنا الذين يقولون بأن « دانتي » و « ملتن » — أخذا عن المعري في « الكوميديا الالهية » و« الفردوس المفقود » والواقع أنه ليس في الرسالتين ما يدل على تقليد أو محاكاة؛ نعم إن بينهما شبها في بعض الوجوه، فكل منهما عبارة عن سياحة خيالية إلى عالم آخر، كما أن في كل منهما عرضاً لكثير من المشاكل الأدبية واللغوية، وزيادة على ذلك فقد اهتم كل من الرجلين بالتهكم بمعاصريه في رسالته؛ ولكن هذا كله تشابه في أمور عامة تتوارد فيها الخواطر غالباً، وربما تكون من وقع الحافر على الحافر كما يقولون. ولو أنك نظرت الى وجه الخلاف بين الرسالتين لرأيته أقوى وأدل على

(١) التوابع جمع تابع أو تابعة وهو الجني أو الجنية يتبع الانسان، والزوابع جمع زوبعة وهي الشيطان أو رئيس الجن

(٢) مطمح الأنفس ص ١٦

(١) ولد ابن شهيد سنة ٣٨٢ هـ

تباعد الرجلين واستقلالهما فى الفكر والغرض ؛ فقد قصد المعرى فى سياحته الى الفردوس والجحيم فى العالم الآخر ؛ وذهب ابن شهيد إلى وادى الجن فى عالم الحياة ؛ واختار المعرى أشخاص قصته من الرواة والشعراء والملائكة ، وارتضاهم ابن شهيد من الشياطين — شياطين الشعراء والأدباء ، وعنى المعرى بالتعرض لكثير من المسائل الفلسفية والدينية ، ولم يتعد ابن شهيد القول فى البيان والنقد والشعر ، وكتب المعرى رسالته بأسلوب وحشى غريب فلا يستطيع القارىء أن يأتى عليها إلا بشق النفس ، وقوة الصبر ، وبعد الاستعانة بمعاجم اللغة ، وساق ابن شهيد قصته فى أسلوب عذب رقيق يخلق اللذة فى نفس القارىء ، ويدفع به إلى استيعابها بلا ملل أو سآمة ؛ ولقد أظهر المعرى كثيراً من التباهى بحفظ الغريب والتمكن فى قواعد النحو والتصريف ، وأطال ابن شهيد القول فى الغض من قيمة هذه الأمور وتحقير الذين يجعلونها كل همهم ؛ ثم بعد هذا كله لا تجد فى إحدى الرسالتين فكرة اشتملت عليها الأخرى ، أو رأيا اتفق لكل من الرجلين ؛ فلكل منهما فضله فى عمله ، ولكل منهما شخصيته فى رسالته ؛ وأظن فى ذلك ما يكفى لدفع تهمة الأخذ والتقليد ، سواء أكانت فى جانب ابن شهيد كما يقول الدكتور ضيف ؛ أم ناحية المعرى كما يريد الدكتور زكى مبارك . وحسبى بعد هذا أن أفرغ معك للحديث عن التوابع والزوابع ، وأن أستعرض أمامك ما احتوته من الآراء والأفكار ؛ ويقينى أنك ستجد فيها كثيرا من الأبداع والأمتاع ، بل سترى شيئاً جديداً يثمره الفكر العربى ، وستشهد لصاحبها بالدقة فى الوصف ، والقوة فى التصوير ، خصوصاً وصف أحوال الشعراء السابقين ، وتصوير ميولهم ونفسياتهم ، وستعجبك منه روح خفيفة ، ونفس مرحة طروب يلذ لها أن تضحك فتجيد الضحك ، ويهمها النادرة الحلوة فتوفق كثيرا الى حلاوة النادرة وبراعة النكتة .

استهل ابن شهيد رسالته بمقدمة قصيرة أراد أن يبين فيها كيف وقعت له حوادثها ، وكيف رحل إلى وادى الجن فقال : « كنت فى أيام الحداثة أحن إلى الآداب ، وأصبو إلى تأليف الكلام ، فابتعت الدواوين ، وجلست إلى الأساتيذ ، فنبض فىّ عرق الفهم ، ودرّ لى شريان العلم ، ويسير المطالعة من الكتب يؤيدنى ، إذ صادف شن العلم منى طبقة ، ولم أكن كالثلج تقتبس منه ناراً ، ولا كالحمار يحمل أسفاراً ؛ وكان لى فى أوائل صبوتى هوى اشتد له كلفى ، ثم لحقنى بعض ملل فى أثناء ذلك الميل ، فاتفق أن مات من كنت أهواه مدة ذلك الملال ، فجزعت ، وأخذت فى رثائه فقلت :

تولى الحمام بظبى الخدور وفاز الردى بالغزال الغرير

إلى أن انتهيت إلى الأعتذار من الملل الذى كان فقلت :

وكنت مللتك لا عن قلى ولا عن فساد ثوى فى الضمير

ثم أرتج على القول ، فاذا أنا بفارس يباب المجلس ، على فرس أدهم قد اتكأ على رمحه ، فصاح بى أجز يا فتى الأنس ، فقلت لا وأبيك ، للكلام أحيان ، وهذا شأن الأنسان ؛ فقال قل بعده :

كمثل ملال الفتى للنعيم إذا دام فيه وحال السرور

فأثبت إجازته ، وقلت : بأبى من أنت ؟ قال : « زهير بن نمير » من أشجع الجن ، تصورت لك رغبة فى اصطفائك ؛ قلت : أهلاً بك أيها الوجه الوضاح ، صادفت قلباً إليك مقلوباً ، وهوىً نحوك محبوباً ، وتحادثنا ، وتذاكرت معه أخبار الخطباء والشعراء ، ومن كان يألفهم من التوابع والزوابع ، وقلت له هل من حيلة فى لقاء من اتفق منهم ؟ قال حتى أستأذن شيخنا ، وطار عنى ، ثم انصرف وقد أذن له فقال جل على متن الأدهم فسرنا عليه ؛ وسار بنا كالطير يجتاب الجو فالجو ، ويقطع الدوّ فالدو ، حتى لمحت أرضاً لا كأرضنا ؛ وشارفت جواً لا كجونا ، متفرع الشجر ، عطر الزهر ، فقال : حللت أرض الجن أبا عامر ، فبمن تريد أن تبدأ ؛ قلت : الخطباء أولى بالتقديم ، ولكنى إلى الشعراء أشوق . . »

وابن شهيد كما ترى يحاول الايجاز فى سرد الحوادث ، ويود أن ينطلق على طبيعته فى إيراد القول ، ولكنه لم يوفق كثيراً فى هذه المقدمة كما يود ، وكما وفق فى عرض الرسالة ؛ فظهر على أسلوبه مسحة التكلف ، ووقعت بعض جمله قلقة نابية ، كأنه كان يدفع بها إلى غير موضع ، ويضعها حيث لا مستقر ؛ فمثلاً فى قوله : « ويسير المطالعة من الكتب يؤيدنى ، إذ صادف شن العلم منى

طبقة ، ولم أكن كالثلج تقتبس منه ناراً ، ولا كالحمار يحمل أسفاراً » ثقل يحسّ به القارئ في اللسان وفي الذوق ؛ وزيادة على ذلك فقد اضطرب الرجل في وضع الكلام ، واختل به نهج القول . ألا تراه يقول في بدء كلامه « كنت في أيام الحداثة أحن إلى الآداب . . » ، ويسير في الحديث على هذه الكينونة ؛ كأنه رحل إلى وادي الجن غض الأهاب ، نضر الشباب ؛ مع أنه فيما بعد سيشكوا إلى إحدى التوابع ما فعلت الأيام به ! ! وسيذكر لها أن من إخوانه من بلغ الامارة ، وانتهى إلى الوزارة ! وفي هذا ما يفيد أنه طعن في الكهولة على أقل تقدير ثم تجده يصف صاحبه « زهير بن نمير » بأنه من أشجع الجن ، وكان الأوفق بداهة أن يجعله في الأدباء ، مادام القول في الأدب والشعر وما دام الحديث عن الأدباء والشعراء .

ولكن هذه هنات هينات . على أنها ترجع الى العَرَض ، ولا تمس الجوهر في شيء ، وقد تكون هي كل ما في الرسالة من المآخذ ؛ ولقد سلك الرجل طريقه بعد ذلك على أحسن ما يكون ؛ يجدّ ويهزل ، ويتهكم ، ويضحك . ويعالج كثيراً من الآراء العميقة ، والأفكار القويمة ؛ وهو في كل ذلك طريف خفيف ؛ ملء قلمه الفصاحة والبيان ، وملء تعابيره البلاغة والايجاز السليم ؛ ولقد حدثنا بعد هذه المقدمة أنه لما نزل بوادي الجن ، ورغب في البدء بلقاء الشعراء ؛ طلب من صاحبه «زهير بن نمير» أن يقدمه الى عيينة بن نوفل شيطان امرىء القيس ، فصاح به زهير : ياعيينة بن نوفل[1] ، أقسمت عليك بسقط اللوى فحومل ويوم دارة جلجل ؛ ألا عرضت لنا وسمت من الأنس ، وعرفتنا كيف إجازتك له — يقول ابن شهيد — فظهر لنا فارس على شقراء كأنها تلهب ، فقال حياك الله يا زهير وحيا صاحبك ، أهذا هو وحش أبي ؟ ثم قال أنشد ، قلت : السيد أولى بالأنشاد ، فتطامح طرفه ، واهتز عطفه ، وضرب عنان الشقراء ، ثم أنشد : « سما لك شوق بعد ما كان أقصرا[1] » حتى أكملها . ثم قال أنشد . فهممت بالحيصة ، ثم اشتدت قوى نفسي وأنشدت : « شجته مغان من سليمى وأدؤر » حتى انتهيت فيها الى قولي :

ومن قنة لا يدرك الطرف رأسها ... تزل بها ريح الصبا فتحدر
تكنفتها والليل قد جاش بحره ... وقد جعلت أمواجه تتكسر
ومن تحت حصن أبيض ذو شقائق ... وفي الكفّ من عسّالة الخط أسمر
هما صاحباي من لدن كنت يافعاً ... مقيلان من جدّ الفتى حين يعثر

« للكلام صلة »

محمد فهمي عبد اللطيف

(١) مطلع قصيدة جيدة لامرىء القيس يشكو فيها الزمان وتكر الخلان ويذكر رحلته الى قيصر الروم مع صديقه عمرو بن قيئة الضبي الشاعر .

(١) الذي في كتب التراجم أن شيطان امرىء القيس اسمه لافظ بن لاحظ

بنـــك مصر

يساعدكم على الادخار من أقرب وأضمن الوجوه .

اتصـــلوا بقسم

بيع الاوراق المالية بالتقسيط

واستفيدوا التخفيض المحسوس

والثقة الوطيدة ، والامان الموفور

خابروا قسم التقسيط رأساً بمركز البنك الرئيسي بالقاهرة

وفروعه بالأقاليم . وليس للبنك وكلاء متجولون